

## لقاء عربي أمريكي

ميشال كيلو \*

بمبادرة من رضوان السيد (أستاذ الدراسات الإسلامية بالجامعة اللبنانية) وديفيد بلانكنهورن (رئيس معهد القيم الأميركية) عقد في مالطا لقاء استمر من 17 و 21 من شهر أيار، ناقش خلاله مثقفون أميركيون وعرب (أتوا من لبنان، سوريا، موريتانيا، المغرب، سلطنة عمان، تونس) مسائل مهمة كالحرب العادلة، والتباعد المتزايد في مفهوم العدالة بين الغرب والعالم العربي، وعالمية حقوق الإنسان والقيم الإنسانية، ودور الدين في الحياة العامة، والمجتمع المدني والدولة، والعلاقة بين الجهاد المعلن والحرب الصليبية غير المعلنة، وإمكانية الحوار بين الغرب والعرب عبر التصدي لمقولة "صراع الحضارات".

بعد جلسة تعارف قدم كل مشارك فيها نفسه، بدأت جلسة الحوار الأولى بمداخلة ألقاها جيمس جونسون أستاذ جامعة نيوجرسي حول "نظرية الحرب العادلة"، قال فيها إن هذه الحرب وسيلة لتأطير الحروب ضمن رؤية أخلاقية يجب أن تحكم العلاقات بين الدول، وإن من المهم التمييز بين مستويات ثلاثة، عند الحديث عنها، هي: تاريخها ومضمونها وأسلوب استخدامها في الخطاب السياسي.

أما تاريخها فيرجع إلى العهد القديم ونظريات استعمال القوة لدى اليونان والرومان والقديس أوغسطين، وإلى بروز مقولة الإنسان في الفكر الغربي إبان القرنين الثاني والثالث عشر، ثم انفصالها عن الخطاب الديني المسيحي واندراجها في القانون الدولي والفلسفة. بينما تعين مضمونها بـ "السياسة الجديدة"، لدى أوغسطين، وقام على النظام والعدالة والسلام، فالقوة تستهدف تكريس النظام، الذي من صلاحية السلطة دون غيرها الحفاظ عليه، لذلك، يجب أن تحتكر القوة، التي لا- يحق لأي طرف آخر استخدامها، وإلا افتقرت إلى الشرعية، وفاتها ضمان السلام. على أن قيام السلطة الشرعية بخوض الحرب العادلة يعني أمرين: عدم إلحاق الأذى بالفئات غير المشاركة في الحرب، أي بالمدنيين، واستخدام قدر من القوة يتناسب مع أهدافها، فلا يجوز استخدام أسلحة في الحرب العادلة يتخطى فعلها ما يراد تحقيقه بها. لكن مفهوم الحرب تطور مع تشكل الدولة/ الأمة، الذي أدى إلى بروز سيادتها وما ارتبط به من تحول في هدف العمل العسكري، الذي صار من الآن فصاعدا حماية منطقة الدولة الجديدة أو إطارها الجغرافي، واكتسب طابعا دفاعيا صريحا.

أخيرا، فإن استخدام هذه النظرية يفترض وجود نظام دولي يسود قدر من التكافؤ والمساواة بين أطرافه.

- رد جمال باروت من سوريا على الأستاذ جونسون مؤكدا أن الحروب تشن لأسباب

تتصل بالأمن، فهو إما منطلقها أو هدفها، وأن نظام الدولة / الأمة الذي تكون بعد صلح ويستقاليا أسس لحروب مصالح انقض خلالها القوي على الضعيف وبرر المنتصرون عدالتها بمصالحهم.

- وقالت الأستاذة آشتاين إن النظرية تكتسب أهمية متزايدة بسبب تكون نمط جديد من الحرب هو الحرب غير المتوازية (التي يسمونها الإرهاب)، وإن من مصلحة الضعفاء تأييد الحرب العادلة بصيغتها النظرية المعروضة، التي تبلورت ضد حرب فيتنام، وكانت أداة لمعارضتها.

- علق الأستاذ عبد الله ولد باه من موريتانيا قائلاً إن النظرية تتضمن مصادرتين قابلتين للنقاش هما: أن السلطة تحركها القيم وليس المصالح، وأن هناك قيم كونية وأخرى ليس لها حق الكونية، فتكون الحرب عادلة عندما تحرك السلطة التي تخوضها قيم ذات خصوصية كونية. وأضاف أن هذا ينهي الفصل بين الحقل السياسي والقيم الدينية، وينفي تأسيس القيم على التواضع العقلي، فتسود ازدواجية المعايير.

- أيدت الأستاذة جين الفصل بين الأصول الدينية والوسيلة للنظرية وبين التطورات الجديدة، وقالت إن التتوير والحدثة يطالبان كنظرية الحرب العادلة بقيم إيجابية، وأن هذه النظرية تدخل إلى الخطاب والممارسة عناصر تتفق والتتوير. وبينما تشترط عالمية نظرية السلام لدى كانط، التي ذكرها عبد الله، نوعاً من أحادية الأشكال، تعفي نظرية الحرب العادلة المدنيين وغير المشاركين في الحرب من الأذى.

- لاحظ الأستاذ سعيد بنسعيد من المغرب أن لمقولة الحرب العادلة حدين متعارضين، فالعدالة قيم والحرب عنف. وأورد شواهد من الفكر السياسي الإسلامي تؤكد حاجة الحق إلى القوة في كثير من الأحيان لحمايته، لكن المشكلة تكمن في مرجعية الحرب، فإن تحركت في إطار الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ومواثيق الأمم المتحدة كانت عادلة كالحرب ضد العنصرية والإرهاب، وإلا غابت عنها العدالة.

- قال الأستاذ ميكائيل نوفاك، من منظري اليمين الجديد في أميركا، بوجود مستجدات توجب الأخذ بنظرية الحرب العادلة، تتركز في نقطتين: ظهور أطراف قادرة على شن الحرب مع أنها ليست دولاً فتخضع للقانون الدولي، وسهولة نقل واستخدام أسلحة الدمار الشامل. لذلك، نشأت الحاجة إلى نظرية في الحرب تنظم علاقات المجال غير الدولي وتكون أداة بيد الضعفاء؛ تتفق مع قيم الأديان الكتابية الثلاثة وترفض قول اليونان خلال حروب البيليبونيز: الأقوياء يفعلون ما يريدون وعلى الضعفاء أن يتحملوا. ليست الحرب العادلة حرب القوة، وحادثة ويستقاليا انتهت إلى عالمنا ما بعد الحداثة، الذي أنجب نظرية الحرب العادلة لحاجته إليها. أخيراً، ورغم اقتناعي بأن الفلسطينيين تعرضوا لأمر غير عادل، فإنني أعتقد أنه ما كان يجب عليهم التخلي عن تفوقهم الأخلاقي على إسرائيل؛ لأنه كان السلاح الذي به ينتصرون.

- لماذا هناك كتابات كثيرة حول نظرية الحرب العادلة في أميركا، تساءل الفضل شلق من لبنان؟ وأجاب: لأن أميركا تملك القوة وتحتاج إلى من ينظر لها. إن أميركا تمتلك جيشا تريد استخدامه لتحقيق مصالحها، ونظرية الحرب العادلة لا تستهدف إحقاق الحق بل تقديم التغطية الأخلاقية للقوة، مع أن الحرب سياسة وليست أخلاقا أو قيما، ولا عدالة لحرب إن لم تكن دفاعية.

- أردف المنصف بن عبد الجليل من تونس أن من التضليل ربط العدالة بالحرب، ونظرية الحرب العادلة ليست سلاحا بيد الضعفاء لأنها تشرّع للقوة. ثم عرّج على فلسطين والعراق، حيث الحرب ظالمة وهجومية، لكن أنصار الحرب العادلة يقبلون بها. والحق، إن الحديث عن الحرب العادلة يؤدي إلى الانزلاق إلى الأصولية الإسلامية، علما بأن نظريتها نشأت ضمن إطار خاص بينما نريد أرضية مشتركة وإنسانية لأفعال البشر.

- طلب تركي علي الربيعو من سوريا أن ننزل من سماء النظرية إلى أرض الواقع لنرى ما يجري في فلسطين، حيث إن شعبها أعزل في حين تهدد إسرائيل بخيار شمشون النووي فتثير خوفنا نحن الضعفاء. إن قادة الإمبراطورية الأميركية مستعجلون لتوسيع تخومها، وهم بحاجة إلى نظرية تضيء صفة العدالة على حروبها.

- لاحظ ميشيل كيلو من سوريا أن نظرية الحرب العادلة تختلف عن النظرة إلى حروب تحرير الشعوب التي كانت تعتبر عادلة ومبررة؛ لأنها موجهة ضد السيطرة الأجنبية. وقال إن عدالة هذه الحروب بلغت أوجها في سياسة نزع الاستعمار، التي تبنتها الأمم المتحدة وعززتها بمدونة قانونية منعت حل النزاعات بين الدول بالعنف، والتدخل في شؤون الآخرين الداخلية، واعتبرت الدول متساوية أمام القانون الدولي فلا بد من قيام علاقاتها على الندية والمساواة، ولا بد أن تحل خلافاتها بالتفاوض... الخ.

واليوم، لا أرى شيئا من هذه المدونة القانونية في نظرية الحرب العادلة، فكأن الهدف منها طي صفحة حروب الشعوب العادلة، ووضع أيديولوجية تسوغ حروب الأقوياء ضد الضعفاء. أود أن أدلكم على حرب عادلة لا تستند إلى القوة والعنف هي الحرب ضد الفقر والظلم والتمييز والإقصاء والاستغلال والعنف، وأناشدكم خوضها وكسبها.

- أخيرا، قال الأستاذ رضوان السيد من لبنان إن نظرية الحرب العادلة تستخدم اليوم من جهتين: أميركا وابن لادن، أميركا التي تعتبر حروبها ضد الإرهاب عادلة، وابن لادن الذي يعتبر إرهابه حربا عادلة، بينما الإنسانية ضائعة بين هذين النمطين من الحرب غير العادلة. وعلى كل حال، فإن مفهوم الحرب العادلة ارتبط تاريخيا بتوسع الإمبراطوريات أو بفرض سلامها على الآخرين، وكان ملازما لمفهوم الفتح. كما أن مفهوم الحرب العادلة ليس واحدا بل حمل مضامين تغيرت بتغير المراحل التاريخية، بينما يرتبط مفهومها الحديث بالحرب على الإرهاب. وأخيرا، فإن تطبيقاتها أدت إلى ممارسات ونتائج غير عادلة، فقد قامت على منطلقات قيمية وأخلاقية، لكنها استخدمت الضغط والتشويه والكذب والتلفيق، فلا مفر من التخلي عنها واستبدالها بالحرب المشروعة، التي تتفق والقانون

الدولي، وتحمل طابعا دفاعيا.

انتهت جلسة اليوم الأول بخلاف دفع مايكل نوفاك إلى الاعتراف بوجود حالة سوء تفاهم كبيرة بين الطرفين العربي والأميركي، عزاه رد الأستاذ عبد الرحمن السالمي من سلطنة عمان إلى أن الأميركيين قدموا لنظريتهم ودافعوا عنها انطلاقا من جوانب دينية خاصة بهم، تختلف عن نظرتنا إلى قضية الحرب.

تركزت جلسة اليوم الثاني على علاقة المجتمع المدني بالدولة، وأكد خلالها المتحدثون من الجانب العربي عدم تعارض الإسلام ثقافة ومجتمعاً مع المجتمع المدني، وقالوا إن المؤسسات الإسلامية كانت دوماً أساس حيوية المجتمع المدني، وهي تصلح اليوم أيضاً كوسيط بين الفرد والدولة، وبينه وبين السوق، وأضافوا أن المجتمع المدني مسألة داخلية وليست موضوعاً يمكن للخارج التدخل فيه. فلاحظ الأميركيون وجود تشابه بين دور الدين في المجتمعين الإسلامي والأميركي.

دارت جلسة اليوم الثالث والأخير حول حق التدخل الإنساني، فتحدث جمال باروت عن استحالة وجود تدخل إنساني في ظل ازدواجية المعايير، بدلالة ما يحدث في فلسطين، فأكد بلانكنهورن على أهمية القضية الفلسطينية، واعترف باستحالة الحوار الجدي دون الحديث عنها، واقترح مناقشة مسألة الدين وحرية العقائد والدين والحياة العامة. عندئذ، لاحظت الشتاين أن مبدأ التدخل الإنساني قديم، وأنه يندرج في إطار الدولة، المسؤولة عن التدخل لإنقاذ مواطنيها حين يتورطون في مآزق ما. وتساءلت: من يحق له القيام بالتدخل الإنساني، إلى جانب الدول/ الأمم، التي لا يوجد في القانون الدولي ما يمنعها من التدخل الإنساني؟. وقالت إن كوفي عنان شكل بعد مجازر رواندا لجنة أعدت تقريرا حول هذه المسألة عنوانه "واجب الحماية"، لم يحظ باهتمام كبير مع انه حدد معايير التدخل وأطرافه، واشترط حدوثه في إطار الأمن الجماعي، كما أجاز لدولة أو لائتلاف دول القيام به شرط التقيد بمواثيق حقوق الإنسان. تساءل سعيد بن سعيد عن الجهة التي يحق لها طلب التدخل الإنساني، وعن الأسس التي تنظمه، إذا لم تكن الأمم المتحدة الجهة التي تقوم به، فردت الأستاذة الشتاين بأن للجماعة التي تتعرض للاضطهاد الحق في عرض وضعها على المجموعات والمنظمات الدولية، فيصير من واجب المجتمع الدولي أخذه بعين الاعتبار ومناقشة إمكانية التدخل ومن ثم القيام به.

تدخل الأستاذ جونسون وميز بين أنماط ثلاثة من التدخل: تدخل دولة ضد دولة تقوم بالتدخل. وتدخل بطلب من دولة أو جهة، وتدخل إنساني صرف. وقال إن التدخل الإنساني هو نمط التدخل الأحدث؛ لأنه يستند على حقوق الإنسان والحيلولة دون الإبادة الجماعية وعلى تقييد سيادة الدول. وهو يجيز تدخل لدولة واحدة وتدخل الأمم المتحدة، مع مراعاة الاعتبارات التالية: أن لا يكون الضرر الناجم عن التدخل أكبر من فوائده. وتكون مساعدة الفئة المضطهدة مرحلة التدخل الأولى، التي تليها مرحلة ثانية تعيد تأهيل هذه الفئة من قبل المتدخل. طلب جلين لوري، الأستاذ في جامعة واشنطن، أخذ مواقف عملية من القضايا

المطروحة بدل إغراقها في كلام نظري، وأكد على ضرورة الجهر بما يجري أمام أعيننا، واستنكار تبني أميركا للمواقف الإسرائيلية من فلسطين، التي تتعارض سياساتها تجاهها تعارضا صارخا مع المعايير الأخلاقية. سرد ميشيل كيلو عندئذ تاريخ القضية الفلسطينية وبيّن بالوقائع تضارب مواقف أميركا مع العدالة والأخلاق، ومخالفة تدخلها لصالح الصهيونية وإسرائيل لقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وتهديده للأمن الجماعي في المنطقة العربية. اعترف نوفاك في كلمته بأنه لم يكن يتوقع حديثا فيه هذه الوقائع الدامغة لصالح فلسطين، لذلك سيقصر حديثه على نظام الأمن الجماعي. ولاحظ أن قوة أميركا تجاوزت عند نهاية الحرب الباردة كل التوقعات، وأن تفعيل الأمم المتحدة ونظام الأمن الجماعي الذي يطالب به الأوروبيون يستهدفان تقييد حركة الولايات المتحدة. وأضاف: لدي هنا ملاحظتان على الأمم المتحدة، فهي تفتقر إلى العزيمة الكافية، وهي ساحة صراعات قوى ومصالح تجعلها عاجزة عن حماية الأمن العالمي. وأورد ملاحظتين حول القضية الفلسطينية، أولاهما: أن لا علاقة بين الأصولية وبين استمرار مشكلة فلسطين، وثانيتهما: أنه كان يمكن استيعاب اللاجئين الفلسطينيين في البلدان العربية.

طلب مشاركون عرب كثيرون الرد على نوفاك، فأعلن رئيس الجلسة أن سبعة من العرب سيغادرون بعد ظهر اليوم، وأن من الأفضل مناقشة إمكانية عقد لقاء آخر بين العرب والأميركيين، فقبلت ملاحظات متنوعة على لقاء مالطا، الذي كان متعبا وحمل الكثير من سمات العلاقات العربية / الأميركية، المشحونة بالخلافات والسكوك المتبادلة.